الثقافة العربية.. نتاجُ مخيلة رحيل ومنفى وغياب

هاتف جنابي

يُنظر إلينا نحن معشر الكتاب والفنانين والمثقفين المغتربين، سواء من انتمى منا إلى عالم المهجر أو من دخل في حدود المنفى، على أننا، على أقل تقدير، أقلية مارقة وخارجة على إجماع الأكثرية. وكأن الثقافة العربية وُلِدت ونشأت بفضل الإجماع الذي نادى وآمن به الكثيرون في مجال الشريعة والدين. وهذا أحد أكبر الأوهام الشائعة في الأوساط العربية.

هناك صفحات مفصلية تكاد تكون بيضاء في تاريخنا الثقافي. إذ يتراءى لي، بأن تاريخنا لم يُكتب بإنصاف ومنهجية ودقة، ولم تدرس المجسات والحلقات المفصلية والبواعث النفسية والفكرية الرائدة التي قامت عليها بنية الثقافة العربية برمتها.

مَن أنت أيتها الثقافة؟ أأنت بناية ومراسيمُ وجوائزَ ومهرجانات وفرمانات ومديح وهجاء وتصفيق ووو؟ لا، يا سادتي، أنا روح وفكر وعقل ومخيلة وهموم وممارسة إبداعية ومعرفية قبل كل شيء. للثقافة، خصوصا جوانبها الأدبية والفنية والفكرية، صدرٌ وقفا، لكن لها قلب وعقل واجتهاد. ما يعنينا في هذا المقام، هو النتاج الأدبي والفني والعقلي المجتهد المؤسس الفاعل.

لعل أهم ما أنتجته فترة ما قبل الإسلام هو الشعر. مَن أنتجه غيرُ البداة؟ هل للبدوي سكن دائم ثابت؟ هل خالفت غالبية المعلقات في مطالعها ما سنه آمرؤ القيس من البكاء على الأطلال والتحسر على عالم كانت كلٌ من العين والذاكرة موطنه، ومن ثم لحق به الزوال والخراب، فأصبحت المخيلة حارسة بواباته؟ ألم يصل شيخ شعراء تلك المرحلة في رحيله وتيهه إلى بلاد الروم؟ ألم يرحل أحد عمالقة شعرائهم طرفة بن العبد إلى البحرين؟ ألم ينفَ هذان الشاعران من قبيلتهما وأهليهما؟

إذا كانت الحياة البدوية هي التي أبدعت هذا الشعر، فإن من بين أكثر سماتها طغيانا هي الشعور بعدم الاستقرار والقلق الناجمين عن الترحال، بغض النظر عن أسبابه.

لولا الرحيل والشعور بالقلق والتمرد لما قامت للشعر الجاهلي قائمة.

ماذا كان يمكن أن يكون عليه مصير الدعوة الإسلامية لو لم يهاجر الرسول من مكة وبعض أتباعه إلى الحبشة؟ أسارت الأمور على ماسارت عليه بدون تفاني المهاجرين ودورهم في التضحية من أجل الرسالة الجديدة؟ ألم تكن تلك التضحيات والتخفي من أجل أن يكون للغياب المتمثل بالرب وبرسالته السماوية حضور؟ ماذا سيكون مصيرُ الثقافة العربية بدون هذا الاندفاع الهائل لفكرة الغياب قولا وفعلا في الزمان والمكان؟ كيف كان يمكن أن تكون صورةُ الإسلام لولا انخراط المهاجر الأجنبي مسلما أو غير مسلم ومساهماته الفذة في صناعة هذه الثقافة؟

من سيكون المتنبي لولا هجرته من الكوفة إلى حلب، ولولا هاجس الرحيل والقلق والحلم المتواصل؟ لم يكن المتنبي، بدون ذلك، متنبئاً بهذا الحجم، ومن كان سيكون أبو فراس الحمداني لولا غربته وسجنه؟ وهل سيكتب مالكُ بن الريب يائيته الرائعة لو لم يتخذ قرارا بالرحيل - إلى بلاد فارس؟ ما كان سيحصل لبقية الشعراء والكتاب والمفكرين أمثال المعري وابن رشد وابن سينا والفارابي وسواهم، لولا رحلاتهم المكوكية المتعددة بين بلاد العرب والمسلمين؟ كيف ستكون صورةُ ابن خلدون لولا عزلته وترحاله هنا وهناك وتغربه في الجزائر وبلاد الشام؟ ماذا سنحصل من النفري وزرياب وابن دانيال مؤسس مسرح خيال الظل العربي، لو لم يختاروا الرحيل والهجرة خارج العراق بل حتى المنفى كما فعل زرياب؟ كيف ستكون الظاهرة الصوفية بدون البحث عن ثنائية الغياب والتجلي التي قادتهم إلى اغتراب حقيقي روحيا وماديا. كيف كانت ستكون صورة ثقافتنا العربية لولا حركة الهجرة المتواصلة للشعراء والكتاب والصحفيين والمفكرين العرب، منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا، سواء بين البلدان العربية أو إلى أوروبا وأمريكا؟ كيف يمكننا الحديث عن النهضة العربية الحديثة بدون هجرة ومنفى أهم رموزها؟ متى كان على المسرح الشعري أن يقوم وبأي شكل لولا رحيل ومنفى أحمد شوقي المبكر؟ هل سيكون، أحمد أبو خليل القباني وخليل مطران وأحمد شوقي وطه حسين وتوفيق الحكيم والريحاني وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأبو شادي وآخرون مثلهم بالعشرات، وفيما بعد، كتاباً وشعراء ومفكرين من قبيل كتاب المنفى الجزائري والمغاربي، من سيكون محمد مهدي الجواهري بلا غربته؟ وعبد الرحمن منيف، وغائب طعمة فرمان والسياب والبياتي وبلند الحيدري وأدونيس وسعدي يوسف ومحمود درويش وجبرا إبراهيم جبرا وسلمى الخضراء الجيوسي وأدوارد سعيد والأستاذ والمفكر محسن مهدي وصالح جواد الطعمة ونعيم قطان وعمران المليح والطاهر بن جلون، وأعداد غفيرة مبدعة أخرى سواهم، أقول: هل يمكن أن يصلوا إلى ماوصلوا إليه وهل كنا سنعرفهم أصلا ونقرأ لهم بهذا الشكل لولا رحيلهم وهجرتهم ومنفى قسم معتبر منهم؟

لنطرح سؤالنا بهذه الصورة: كيف كان يمكن أن يؤول إليه مصيرُ الثقافة العربية بدون هذا الكم الهائل ذي الطابع التأسيسي؟ ثم من نكون نحن المجتمعين اليوم في هذا المكان المقدس الذي كان، إلى وقت قريب، خيرة كتابه وفنانيه المعروفين وبعض كبار رموزه، لسانه وعقله، منطلقين من أعماق الغربة والمنفى، أقول: هل يمكننا أن نجتمع هنا، ومن سنكون ياترى لولا فعل الرحيل والمنفى والغياب، هذه المرة، عن الأوطان؟ بعد تسع وثلاثين سنة من القراءة والكتابة المتواصلتين، قضيت معظمها مراقبا، مصغيا، متأملا وباحثا في الأدب والمسرح المقارن وثقافة المنفى والمهجر، تولدت لدي قناعة بأن الثقافة العربية في جوهرها وبنيتها الأساسية، بعد تفكيك مفرداتها وإحالتها إلى مصادرها الحقة، هي نتاج مخيلة رحيل ومنفى وغياب بامتياز. هذه الروحية التأسيسية هي التي وجهت الثقافة العربية وهي التي تتحكم في مسيرتها وأعماقها ومخيلتها، وليس كما صورته لنا ثقافة الأقلية المتنفذة المتحكمة طوال كل هذا الوقت، الذي فرضت على الملأ تصورها المشوه لواقع الحال. لذا فليس من الغريب أبدا، أن تكون هذه الأقلية هي التي هيأت الظروف المؤاتية لهذا النزيف المتواصل المسمى بالهجرة والمنفى.

نود في هذا الصدد أن نقدم أحد الأدلة الدامغة على صحة افتراضنا، يشمل المنفى في نتاج ومسيرة رواد الشعر العربي المعاصر: ألم يكونوا هم روادنا والأسماء الأولى المجددة التي شقت طريق التجديد والتحديث الفني واللغوي والرؤيوي؟ لقد هربوا بجلودهم لكنهم بعد موتهم أو هرم الأحياء منهم تم توظيفهم بل والسعي لإعادتهم إلى ما يسمى "الصف الوطني" الذي تدعي تمثيله "ثقافة الأقلية" المتنفذة.

وبعد كل ذلك، أكان يمكن أن تقوم للثقافة العربية والإسلامية قائمة بدون نتاج المغتربين من مهاجرين ومنفيين؟ هذا هو الوجه الحقيقي الصارخ الذي جرى التستر عليه عبثا، لأنه وبعد أن أصبح ظاهرة خارجية تبارى المتبارون في احتوائه، بعد أن فشلوا في لجمه وتسفيهه. على أن هؤلاء الذين تأصل فيهم هم الرحيل والغربة والمنفى والغياب والكآبة والقلق والانسلاخ والبحث عن الذات هم أكثر صلادة وتشبثا بانتماءاتهم الأولى من ذي قبل. يطلون على الهاوية فيرون ما لايراه سواهم.

❖ ملخص للبحث الذي كان من المزمع إلقاؤه في مؤتمر الكتاب العرب في المهجر المنعقد في الجزائر للفترة مابين ٢٤-٢٨ حزيران، ولم يقدم نظرا لانسحاب الكاتب منه. سينشر البحث كاملا في مجلة المدى

جماعة ناجين والتشكيليون العراقيون يؤبنون الراحل باسم حمد ويستذكرون أعماله الإبداعية

محمد شفيق

اقامت جماعة ناجين للثقافة والفنون بالتعاون مع جمعية التشكيليين العراقيين ، حفلاً تأبينياً للفنان الراحل باسم حمد ، صاحب نصب ناجين في ساحة الفردوس. وذلك في الأتحاد العام للأدباء والكتاب ، ساهم فيه عدد من الفنانين التشكيليين من اصدقاء وزملاء الراحل ، والذين سلطوا الضوء على تجربة الراحل ودوره في التشكيل ولا سيما في السنوات الأخيرة.

تحدث في البدء الشاعر فارس حرام الذي ادار الحفل التأبيني عن علاقته بالراحل، وعده فناناً "متمرداً" على كل ما هو سائد ومألوف ولم يتوقف الشاعر حرام عند الاعمال التشكيلية للراحل، وانما استذكر الادوار التي مثلها في فيلم مدخل لنصب الحرية، وغير صالح، وكذلك فيلمه الوثائقي عن كلكامش الذي تناول فيه اعماله النحتية.

اما د/شفيق المهدي فقال: باسم حمد فنان موهوب، اشبه بالفنانين العالميين من حيث التوجه، وهو صديق لكل فنان مخلص وصادق في عالم الفن وموته كان يشكل خسارة كبيرة للمشهد التشكيلي العراقي.

وقرأ الشاعر الشعبي كاظم لازم قصيدة شعبية، أبّن فيها الراحل، وذكر دوره في الفن والحياة. سبقها بكلمة سارت في ذات الاتجاه.

وكان للفنان التشكيلي سلام عمر رأي في أعمال الراحل اذ قال:

باسم حمد جسد في اعماله الحس العراقي المتعالي. وكان نصبه اطفال النعيرية الذي تركز على الشهداء الاطفال، في منطقة النعيرية، الذين ماتوا بسبب عمل ارهابي، مثال على ذلك.

وتحدث ايضاً عن عمله نصب النهرين في مدخل وزارة السياحة وكيف كانوا مثابرين في مشغل سلام عمر حيث كان يعمل على ابداعه.

وتحدث الفنان سعد عزيز عبد الصاحب عن علاقته بالراحل وجيه للغناء قائلاً: فضلاً عن كونه فناناً تشكيلياً فان صوته غنائي معبر ولا سيما في ادائه للاغاني السبعينية أي انه لم يتوقف عند التشكيل، وانما عبر عن ذلك في باقي الفنون الاخرى.

وتحدث ايضاً زميله الفنان التشكيلي هادي ماهود كنت اتمنى ان يكون لباسم لحن، او تمثال في كل ساحة من ساحات بغداد، كي لا ننسى حضارة العراق، ودوره الانساني الكبير، كما تمنى فهو قبل رحيله فهو لم يتعب من حب العراق، والعمل من اجله، حتى لو كان ذلك ليل نهار.

وتحدث القانوني طارق حرب قائلاً: عند سقوط النظام ذهبت الى فندق فلسطين عشتار ورأيت مجموعة شباب يقودهم باسم حمد لبناء نصب جديد يمثل حضارة العراق فوق انقاض نصب الطاغية في ساحة الفردوس ولم تمض ايام حتى كان نصب ناجين. فالمثابرون والحرص كان ديدنه.

كان باسم حساً حقيقياً يقترب من الحياة بكل حقيقته كان حالماً بقوة الاستمرار في شكل الطين الذي يطاوعه حين يتلمسه.

خسارة اخرى تصيب حياة الفن العراقي في سفراتنا المتكررة الى الموصل دخلنا الى كهوف دير رهبان هرمز وكان هذا الدير بكهوفه يأوي منذ عام يؤوي ١٦٠٠ الهاربين من كل شتى العالم القريب.. حصل ان صعد باسم باتجاه الدير وكان الدير على جبل لحظتها عاد مسرعاً الى الراهب يطلب من ان يعمل نحتاً الى الراهب هرمز فوق الجبل وكم كانت تشغله الفكرة.

باسم مهووس بأحساس لا ينتهي من موسيقى روحه واعتقد انه كان صحيحياً في كل ما عاشه ومخلصاً حد التفاني لاجل ان يكون دائماً هو باسم وكان للفنان سلام السكيني احد مؤسسي جماعة ناجين كلمة قال فيها:

تعرفت عليه قبل اثنى عشر عاماً وكان ذكياً حاداً ومحباً ومتمرداً على المؤسسة الثقافية ولكونه متمرداً فكان مثقفو السلطة يتضايقون من هذا الشاب الفنان الشامل والمثقف الطيب وبعد سقوط النظام ساهم هو واصدقاء في اول بيان وبعدها باسم عمل هو ورفاقه على نصب ساحة الفردوس ويعد عمل (نصب الناجين) كان ينظر الى المتحدثين في الفضائيات والصحف عن العراق الجديد ولا يعلمون من قام بهذا النصب.

اما الفنان التشكيلي احمد نصيف فقال: لو توفرت الفرصة المناسبة للفنان باسم حمد، لخرج لنا بأعمال اكثر تقنية من اعماله الحالية، ولا سيما نصب ناجين.

وكان رحمه الله يتمنى ان يضع في كل ساحة نصباً او تمثالاً يمثل العراق الجديد بكل تفاصيله ومقوماته الجديدة.

اما تحسين كاظم زميل الراحل خاطبه قائلاً:

اخي باسم انا اكره لعبة التخفي ولكنك فعلتها واختفيت.

سؤالي هل توقفت تلك الانامل عن الابداع وهل خبت تلك الروح المفعمة وانزوت في رمس لا يستحق الا ان يكون نصباً كنصب ساحة الفردوس.

محب يحمل ربيع روحه الطيبة بعد ان خبت وتحملت شظايا القنابل وازيز الرصاص وسراق الارواح والمصارف لتعلو رمزاً ونصباً يزين وجه بغداد.

شفافية الألوان وزحمة الأشياء في لوحات الفنانة المغربية جميلة العرايشي

د. فاضل سوداني

تعد الفنانة المغربية جميلة العرايشي من اللواتي يتعاملن مع موضوعات اللوحة، ألوانها وخطوطها وحركية الإيقاع وفيكوراتها المموهة دائما، من خلال بساطة الرؤيا، بل من بدائيتها أحيانا، ولكنها بدائية فيها الكثير من عمق المعالجة مما يضفي هذا على ألوان ومكونات وجو اللوحة فعالية التأثير على المشاهد، ليس التأثير على عينه فقط وإنما على مشاعره بغية الوصول إلى اللغة المشتركة بينهما. وهذا هو جوهر الهدف الذي من اجله تحاول الفنانة أن تكتشف الآخر، إنها تبحث عن ذلك الآخر الذي هو دائما مموه وضائع بين زحمة الأشياء والألوان في واقع مكتظ.

في المغرب هنالك وضوح ساطع لزحمة الأشياء ومكونات الواقع والطبيعة وجمال البحر وضوء الشمس الباهر دائما والذي يحتضن الإنسان وأشياءه بحنان ودفء. و وبالرغم من هذا الاكتظاظ، إلا أننا نكتشف حقيقة هي ضياعه أو عدم وضوحه في لوحات العرايشي، بالرغم من أن هذا الضياع ليس كليا، ولكن هكذا ما نراه واضحا في لوحات الفنانة العرايشي.

وتحاول الفنانة دائما اكتشاف هذا الضياع من خلال التعامل بصدق وبراءة في الوصول الى لغتها الفنية وأسلوبها الخاص انطلاقا من إيمانها من كون الفن هو لغة التخاطب مع الذات أولاً والآخر ثانياً.

وتعامل الفنانة مع الأشياء ومكونات الحياة والآخر وعكسها في اللوحة يؤكد بدائية النظرة الفنية الغنية بالتساؤل المقلق أحيانا لأن الفنانة كونها امرأة لا تمتلك الكثير من الأجوبة الواضحة على تعقيدات المجتمع الذكوري، او مايقوم به الانسان من تشوبه للطبيعة.

ويدفعها غموض هذا الواقع، إلى استخدام البرادوكس في تعاملها الفني مع مكونات

اللوحة، أي رؤية عكس هذا التعقيد والغموض الحياتي والاجتماعي، وذلك من خلال اللجوء إلى الطبيعة بألوانها الشفافة وحركة إيقاعها الهارمونية أو العنيفة او المشوهة أحيانا من اجل خلق عالم هارموني فيه الكثير من الجمالية وبهذا فانه مضاد لخشونة هذا الواقع.

مما حتم على الفنانة استخدام لون البحر الممزوج بضوء الشمس الذي هو عادة أكثر سطوعا في المغرب، فتلجأ الفنانة إلى استخدام الألوان الزرقاء المتوسطية التي تعكس أحاسيسها بصدق كامل.

أن شفافية الألوان المستخدمة في بعض لوحات الفنانة العرايشي وذلك الضوء الباهر الذي تحاول الفنانة تأكيده، تكون أحيانا ممزوجة بتلافيف وخطوط

وانحناءآت لا يمكن فهمها إلا من خلال ربطنا لمكونات لوحة الفنانة، موضوعها، ألوانها وحركتها وإيقاعها، مع الألوان الزرقاء التي تمنحها حركة البحر وإيقاع أمواجه او تلك السماء الصافية التي لا يمكن إلا ان تكون سماء مغربية.

إذن تحاول الفنانة أن تعكس الطبيعة وحركية ألوانها من خلال بصيرتها التي هي انعكاس لأحاسيسها الداخلية سواء تميزت بهدوء المشاعر أو عنفها، وهذا ينعكس على التعامل مع أشياء الحياة والطبيعة سواء في حالة قبول من قبل الفنانة أو في حالة رفض غاضب أحيانا.

وبالرغم من تجريدية تلك اللوحات المتأثرة بألوان البحر المتوسط، إلا أننا نكتشف بين تلا فيف ألوانها وجوداً لفيكورات وإشكال مختلفة ذات ملامح بشرية أو كائنات غير معروفة، وهذا متأت من أن الفنانة لا تبغي أن تظل لوحتها تجريدية وغير مفهومة أو غامضة، وإنما تحاول أن تعطي ملامح إنسانية ضمن تجريدية مكونات اللوحة وألوانها حتى يمكن أن تخلق نوعاً من التواصل مع الآخر. أن هذه الموضوعة (مع الآخر) هي التي تقلق الفنانة جميلة العرايشي، لكن التواصل مع موضوعات الفنانة يتم دائما من خلال استخدام تلك الألوان الشفافة والمعبرة والتي تؤثر في العين والبصيرة.

و تتعمد الفنانة أحيانا في الكثير من لوحاتها أن تملأ مساحتها بمكونات وخطوط وإيقاعات توحي باكتظاظ الموضوع لدرجة أنها تقتصر أبعاد اللوحة إلى بعدين فقط، وهذا متأت من محاولة تأكيدها على زحمة الأشياء الحياتية والبشرية والطبيعية في الحياة المغربية التي من السهل على عين الفنانة اكتشافها.

إن استخدام الألوان بشفافيتها المتوسطية والتنوع وعدم التزام الفنانة بقوانين أبعاد اللوحة ينحو بها الى أن تهدف إلى إبراز وتأكيد جمالية بدائية.

وإذا كان أسلوب مثل هذه اللوحات بألوانها الصارخة تؤثر في عين المشاهد، فان لوحات أخرى للفنانة رسمتها بأسلوب يختلف تماما عن الأسلوب الأول، وهو أسلوب يؤكد التعامل الخشن مع اللوحة ومكوناتها وخاصة عندما ترسم الفنانة الواقع الحياتي المغربي، ويتحقق هذا من خلال استخدام الألوان القاتمة وخشونة ضربات الفرشاة وإيقاع حركة خطوط اللوحة، وبالتأكيد فان هذا متأت من طبيعة الموضوع الواقعي المتناول.

وبالرغم من أنها أحيانا تقترب من الفوتوغرافية في تناول الواقع لكنها واقعية وفوتوغرافية مؤسلبة ومكثفة في استخدام الخطوط والألوان الحارة لتعكس طبيعة الواقع الخشن أصلاً.

وبالرغم من تناول الفنانة جميلة العرايشي الطبيعة والحياة الواقعية المغربية ببساطة وبدون تعقيد في المعالجة، فإنها لا تحاول أن تؤكد على الموضوع أو الفكرة بكامل التفاصيل، وإنما بشكل مموه، حتى وان استخدمت الفيكر -الإنسان إلا انه سيكون بملامح غير واضحة وبلا تفاصيل كثيرة.وبالرغم من هذا فإنها تحاول دائما أن تقسم عملها بين النظرة التجريدية وبين الواقعية - الطبيعة.

إن الجهود العصامية الفردية التي تحاول الفنانة العرايشي بذلها تجعل تعاملها مع الأشياء ومكونات الحياة بروح شفافة وصدق متناه وبدائية في التعامل ممزوجة بنظرة فنانة واعية مأخوذة بجمال الطبيعة وحركة ألوانها الغنية المملوءة بالرموز، ومأخوذة أيضا باكتظاظ الحياة في محاولة لاكتشاف لغة التواصل مع الشريك الآخر في الحياة.

مرثية الفنان المسرحي الراحل عزيز عبد الصاحب

سامي قفطان

تخطيت العلا جيلاً فجيلاً
ولكن قد تعجلتَ الرحيلا
تُعذبُكَ الليالي حين تغفو
فكيف لنورها نجد السبيلا
أتتك مصائبُ الدنيا تباعاً
فكنتَ بها غريباً او عليلا
تآلفنا مع الاحزان حتى
ملأنا الارض دمعاً أو عويلا
تناديني اخي فاتيهُ فخراً
وأوتي فيضك الشكر الجزيلا
فانت على مدى الايام صلبٌ
ودخرك كان لي جيلا وجيلا
فكم منا طريحُ فراشِ موتٍ؟
يصارعُ واقعاً مراً طويلا
ابا سعدٍ سافخرَ بحر حزني
وأندبُ باكياً خلاً أصيلاً
مكانك في القلوب وأنت تدري
بان القلب لا يرضى بديلا